المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية والنشر
الجمهورية العراقية

المجلد الثالث عشر - العدد الرابع ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

WWW.ATTAWEEL.COM

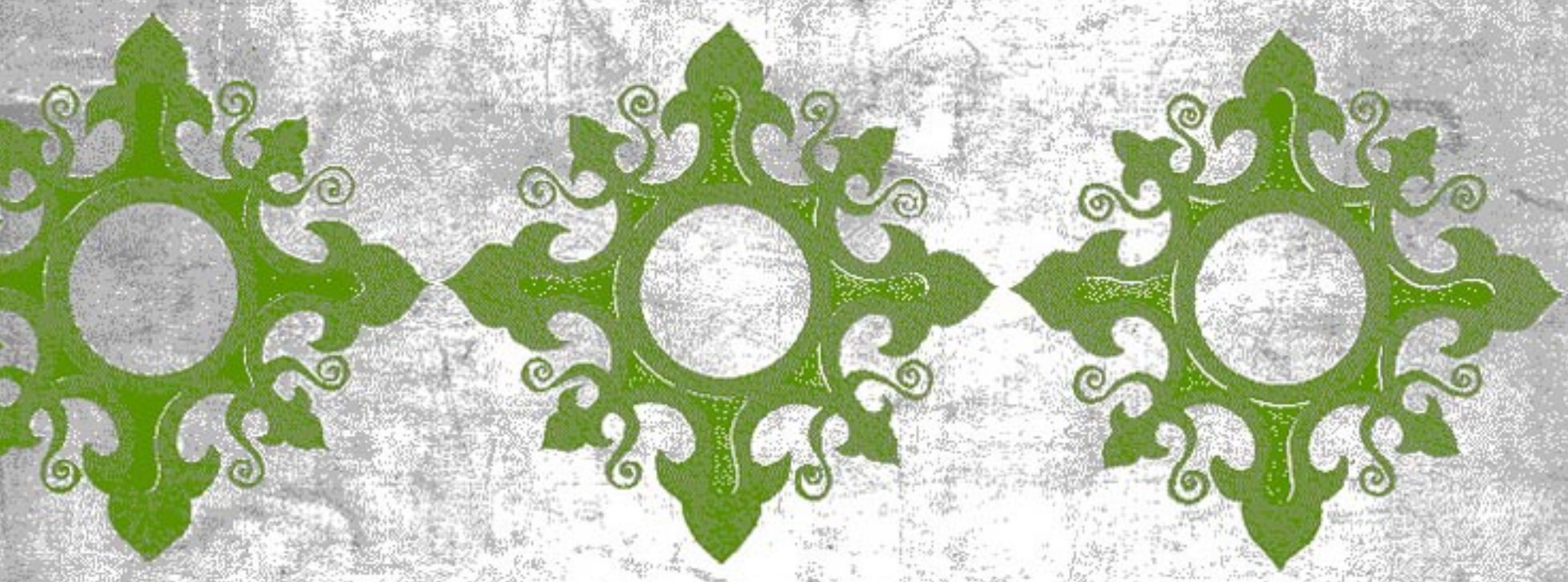

أسد الدين محمد

الغناء والموسيقى حتى نهاية العصر الأموي

الدكتور

شحادة علي الناطور

جامعة اليرموك ـ اربد ـ الاردن

١ ـ الغناء والموسيقى في العصر الجاهلي

لعب الفن الغنائي دورا مهما في حياة الافراد والجماعات ، فهو من اكبر الملذات ، يبعث النشوة والفرح في قلوب مستمعيه ، فتهتز له الجوارح ، وترتاح له النفس ، ويريح الاعصاب وينسي الهموم كما يشحذ الذهن ويلين العريكة(١) لانه صدى للحياة في شكل فني ومظهر من مظاهر الوجدان المتعددة(٢) .. فالنفس عند سماع النغم يدركها الفرح والطرب ، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب وتستميت في سبيله(٣) .

فالصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق ، فيصفو له الدم ، وتنمو له النفس ، ويرتاح له القلب ، لانه لذة تكتسب بلا تعب ولا إرهاق للجسم والجوارح(٤) ، لذا ترى الأم تناغي ولدها ، فيكف عن البكاء ، والراعي ينفخ بنايه لاغنامه فتقبل على الكلأ ، والجمال تسرع بالحداء(٥) . والجنود يستميتون في الحرب عند سماعهم الموسيقى(٦) .

فالموسيقى غذاء للنفس ، يطربها ويلهبها ، تبتهج عند سماعه وتحن الى تاليفه(٧) ، لانها التعبير عن الاحساس الانساني لحنا واداء موسيقيا .

وهي انعكاس لحياة الانسان في مجتمعه ، تصور الحياة الانسانية في تطورها اللامتناهي ، وتعطي صورة عن الحياة في مختلف مظاهرها المادية والمعنوية للوسط والعصر الذي عاشت فيه .

واذا كان الغناء لا يستغني عن الموسيقى ـ بشكل عام ـ فعند العرب لا يفصلان ، لان لكل منهما تاثيراته الخاصة بحيث يكمل الآخر(٨) لارتباطهما ارتباطا عضويا متلاحما .

ولما كان للغناء العربي انواع كثيرة ، كان لابد من تعدد الالحان التي تناسبه ، مما يدل على القابلية للتطور والمرونة ، بحيث يشد المستمعين اليه ، فيقبلون عليه في يسر وسهولة ، وهذا يتناسب مع طبيعة العربي الروحية والعقلية .(٩)

---

(١) ابن خرداذبة : كتاب اللهو والملاهي ، ص ٢١ (دار الشرق ، بيروت ، طبعة ٢ ، سنة ١٩٦٩) .

(٢) نسيب الاختيار : الفن الغنائي عند العرب ، ص ٧ . دار بيروت سنة ١٩٥٥ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٥٨ .

(٤) الابشيهي : المستطرف ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٥٨ . الابشيهي ، المستطرف ، ج ٢ ص ١٤٦ .

(٦) ابن خلدون : المصدر والصفحة .
وقد قيل : « من لم يحركه الربيع وازهاره ، والعود واوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج » احمد شلبي : الحياة الاجتماعية ، ص ١٧١ .

(٧) المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٨) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٦ .

(٩) محمد محمود سامي حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٢ .

وقد عرف العرب الغناء منذ اقدم العهود ، وقد اشتهر عندهم من خلال ثلاثة انواع(١٠) : النصب ، والسناد ، والهزج .

والنصب هو غناء الركبان ، ويقال له المرائي، والغناء الجنابي ، ومنه كان اصل الحداء(١١) .

اما السناد : فالثقيل ذو الترجيع ، الكثير النغمات والنبرات .

والهزج : فهو الخفيف ، الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم.

واذا كانت الصحراء وهي تتموج على همسات الانغام ، والواحات تتراقص على تنهدات الالحان ، تجمل الحادي بجود بما في اعماقه من الحان وانغام على وقع مناسم الابل في هداة الليل وسجوه(١٢) ، فلا عجب اذا راينا العربي يعبر عن فرحته غناء اذا وجد ماء بعد لأى(١٣) ، وكذلك وفود القبائل إذا التقت حول الكعبة(١٤)، او في اسواقهم الموسمية(١٥) (عكاظ) ولا عجب إذا راينا بعض الشعراء ينشدون (غناء) ما تنتجه قرائحهم بين قبائل العرب(١٦) ، فالغناء عند العربي احد الأمور المهمة : كالحب والمخاطرة والحكمة(١٧) ، لذلك مارسه الانباط والغساسنة ، وعرب الحيرة ضمن طبيعة حياتهم، بمن في ذلك المراة وخاصة في الأعياد والمناسبات(١٨) .

ولكن الغناء في هذه الفترة لم يكن متطورا ، بل كان صورة عن حياة الناس البسيطة ، فقد تميز بانه حداء مهذب ، إلا ان الحانه كانت موزونة(١٩) ، غلبت عليه البساطة والارتجال(٢٠) يؤديه صاحبه حسب الانفعالات والتاثيرات التي يتاثر بها في حياته، بينما درجاته الصوتية تتشابه مع ما يسمعه في الطبيعة ، ـ كصفير العصافير ـ وهديل الحمام ـ(٢١) .

وعرف عرب المناذرة والغساسنة القيان ، اللائي كن يحين حفلات السمر ، مما جذب اليهن عرب الجزيرة ، وتغنى بهن الشعراء(٢٢) . وكذلك كان لدى عبدالله بن جدعان قينتان تسميان « جرادتي عاد »(٢٣) ثم تعددت القيان(٢٤) لحب اشراف العرب حفلات السمر والاستماع لهؤلاء القينات(٢٥) .

وقد لعبت القيان دورا هاما في حياة العربي المرهف الحس ، فهي ـ في نظره ـ الكوكب الذي تتالق بانواره دنياه ، والبسمة المشرقة في ليله البهيم ، وزاده المرتجى في سفره الطويل ، اليها يستمع وهي تتغنى ، ومنها يملأ ناظريه ويطرب . ولكن ، هل كانت القينة تتمتع بالمكانة الاجتماعية

---

(١٠) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ، ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٧ .
الابشيهي : المستطرف ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .
عبدالرحيم محمود : مجلة المقتطف لديسمبر سنة ١٩٢٨ ، ص ٢٨٦ . (تاريخ الغناء العربي) .

(١١) وقد ذكر ان اول من اخذ ترجيعة الحداء مضر بن نزار وقد انشده على وقع خطى الابل .
انظر ابن رشيق : العمدة ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، الابشيهي المستطرف ج ٢ ، ص ١٤٦ .
المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٢١ .
زيدان : الموجز في تاريخ اداب اللغة العربية ، ص ٥٠ .

(١٢) نسيب الاختيار : الفن الغنائي ، ص ٥ .

(١٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs, P. 73

(١٤) فاروق خورشيد : مجلة الدوحة ، ديسمبر سنة ١٩٧٦، ص ٦٠ .
فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ١٦ .

(١٥) فارمر : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(١٦) نسيب الاختيار : الفن الغنائي ، ص ١٩ .

(١٧) Nicholson, Ibid, P. 123
Nicholson, Ibid, P. 136

(١٨) فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ١٢ ـ ١٩ .

(١٩) فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ٦٣ .

(٢٠) نسيب الاختيار : الفن الغنائي عند العرب ، ص ٢٢ .

(٢١) محمد محمود سامي : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٢٢٢ .

(٢٢) فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ٢٠ (تغنى الاعشى بالقهوة ، وطرفة ولبيد وحسان بالقيان) .

(٢٣) المفضل بن سلمة : الموذ والملاهي ، ص ٤٢ مخطوط .
ابن واصل الحموي : تجريد الاغاني ، ج ٣ ، ص٩٦٤.
ابن حبيب : المحبر ، ص ١٣٨ .

(٢٤) عبده بدوي : السود والحضارة العربية ، ص ١١٩ (وعرف من القيان في هذا العهد بنت عفزر ، زينب ، حمامة ، ارنب خليدة ، هريرة) .

(٢٥) احمد الشامي : في تاريخ العرب والاسلام ، ص ٧ .

المرموقة التي تتناسب مع ما كانت تؤديه من رسالة فنية ! والغريب ان الجواب بالنفي(٢٦) .

وهكذا نجد ان الغناء لم يكن مقتصرا على فئة دون اخرى ، بل شارك فيه الرجال الحداة منهم ، والشعراء ، واسهمت فيه المراة بنصيب واضح ، من سيدات البيوت والقيان ، في الحجاز وشبه الجزيرة الى جانب الغساسنة وعرب الحيرة(٢٧) .

لقد بدا الغناء العربي ساذجا بسيطا ، يردده التجار والبدو الرحل بتنغيم ابيات القصيدة على وقع حوافر الخيل والجمال حداء ، ثم حسّنوه باستخدام آلات الطبل والدف ، وانتهى به التطور الى استخدام الطنبور والعود والقيثارة(٢٨) .

واول من حسّن الغناء وادخل الموسيقى : النضر بن الحارث(٢٩) فهو الذي طور الغناء الذي حل مكان النصب ، واليه يعود الفضل في ادخال العود ذي التجويف الجلدي(٣٠) عن عرب الحيرة المتقدمين فنيا كاخوانهم الغساسنة والانباط الذين كانوا يكرمون الموسيقيين ويجلونهم لحاجتهم لهم في حفلاتهم(٣١) .

(٢٦) نسيب الاختيار : الفن الغنائي عند العرب ، ص ١٢ .

(٢٧) يوسف خوانمة : مجلة الافكار « فن الموسيقى والغناء عند العرب » ، العدد ٤٨ ، ص ١٢٤ .

(٢٨) سامي محمد علي : مجلة الثقافة العربية ، السنة ١ ، العدد ٨ ، ص ١٠٥ .

(٢٩) هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبدمناف ، من بني عبدالدار من قريش ، صاحب لواء المشركين ببدر ، كان من شجعان قريش ووجوهها وهو اول من غنى على العود ، وهو ابن خالة رسول الله (ص) الذى الرسول كثيرا ، شهد معركة بدر مع مشركي قريش ، فاسره المسلمون وقتلوه .
انظر : الكامل جـ ٢ ، ص ٢٦ . القيرواني : زهرة الاداب ، جـ ٣ ، ٢٣ ، ٢٤ . ياقوت : معجم البلدان، جـ ١ ، ص ١١٢ .
الزركلي : الاعلام ، جـ ٨ ، ص ٣٣ .

(٣٠) ابن خرداذبة : كتاب اللهو والغناء ، ص ٢١ .

(٣١) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ١٣ (نقلا عن سترابو) .

وقد عرف عرب الجزيرة الآلات الموسيقية ومصاحبتها ـ غناء ـ حتى النساء عزفن وغنين على المزهر والكران ، والوتر ، والدف ، والجلاجل والناقوس(٣٢) والمعزفة « الطبلة الطويلة »(٣٣) .

هذه الآلات الموسيقية كانت معروفة لديهم ـ على نطاق محدود ـ الى جانب آلاتهم الموسيقية التي تميزوا فيها بين شعوب الارض آلا وهي الرباب(٣٤) .

وهكذا يتبين ، أن عرب الجزيرة عرفوا الغناء ، ومارسوا العزف على آلات بسيطة الحانا تتناسب مع حياتهم الاجتماعية والثقافية ، ولكن هذا الفن الادائي واللحني قد شهد تطورا ملموسا على ايدي الموالي في عهد بني امية وهو ما سنتناوله في الفصل القادم .

ب ـ الغناء والموسيقى في فجر الاسلام

اختلف الفقهاء في الغناء والموسيقى بين الاباحة والتحريم ، والف كل منهم المصنفات في الادلة والبراهين لدعم موقفه .

فاذا كانت الموسيقى تندب لاثارة حماسة الجند في الزحف للحرب فهي مستحبة ، ويحسن معها في هذا المقام الاناشيد الحماسية التي تدفع الجنود للذود عن الوطن(٣٥) .

ولكن الرسول ابدى رضاه عن الصوت الحسن ، فقد قال لابي موسى الاشعري « لقد اتيت مزمارا من مزامير داوود »(٣٦) وقال « من لم يتغن بالقرآن فليس منا »(٣٧) .

وروى « ان ابا بكر دخل على عائشة وعندها

(٣٢) انظر ديوان الاعشى ، ص ٩٢ ، ١٢٠ .
فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ١٢ .

(٣٣) عرفت الطبلة الطويلة عند اهل اليمن . فارمر ، تاريخ الموسيقى ، ص ٩ .

(٣٤) نسيب الاختيار : الفن الغنائي عند العرب ، ص ١٧ .

(٣٥) عبدالرحمن الجزيري : الفقه على المذاهب الاربعة ، جـ ٥ ، ص ٥٥ ، ٥٦ . بيروت : دار التراث . بلا تاريخ .

(٣٦) الابشيهي : المستطرف ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ .

(٣٧) ابن القيسراني : السماع ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

جاريتان في ايام منى تدففان وتضربان ـ والنبي (ص) متغش بثوبه ـ فانتهرهما ابو بكر ، فكشف النبي (ص) عن وجهه وقال : دعهما يا ابا بكر ، فانهاايام عيد »(٣٨) .

وذكر ان النبي مر على سيرين (جارية حسان ابن ثابت) وهي تغني بمصاحبة مزهرها ، فلم يامرها بالتوقف كما لم ينهها عنه ، ولما خاطبته هل علي ان لهوت من حرج » تبسم وقال « لا حرج ان شاء الله(٣٩) .

وهناك قصص اخرى(٤٠) اوردها المؤرخون

(٣٨) المفضل بن سلمة : العود والملاهي ، ص ٥ . (مخطوط) بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٣ فنون جميلة .

(٣٩) الابشيهي : المستطرف ، ج ٢ ، ص ١٤٧ . النويري : نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٣٩ . ابن سلمة : العود والملاهي ، ص ٩ (مخطوط) .
ابن خرداذبة : اللهو والملاهي ، ص ٣٦ .

(٤٠) ا ـ وروى ان احدى الجاريات كانت قد نذرت ان عاد الرسول من غزوته أن تضرب بالدف وتغني ، فلما عاد سالما اخبرته بنذرها فقال لها : « ان كنت نذرت فاضربي والا فلا » فجعلت تضرب فدخل ابو بكر وهي تضرب ، ثم دخل علي وعثمان ، ثم دخل عمر فالقت الدف ... وقعدت عليه انظر : ابن القيسراني ، السماع ، ص ٥٥ (ذكر اسمها سيرين) . الشوكاني : نيل الاوطار ، ج ٨ ، ص ٢٧١ .

ب ـ وذكر ان احدى جاريات الانصار زفت الى بعلها بدون غناء ، فقال عليه السلام لعائشة : « اهديتم الفتاة الى بعلها ؟ قالت نعم . فبعثتم معها من يغني لها ؟ قالت لم نفعل . قال : او ما علمت ان الانصار قوم يعجبهم الغزل ، الا بعثتم لها من يقول : « اتيناكم اتيناكم : فحيونا نحييكم ... ولو الحبة السمراء لم نحلل بواديكم . ثم قال لها الابشيهي : المستطرف ، ج ٢ ، ص ١٤٧ . ابن القيسراني : السماع ، ص ٥٥ . النويري : نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

ج ـ وذكر انه وجد في عهد الرسول ثلاثة موسيقيين عزفوا وغنوا امام الرسول وهم / عمرو بن امية الضخري ، الذي عزف في زواج علي من فاطمة ، والثاني حمزة بن يتيم ـ وكان شيخ الموسيقيين غنى مع بلال في زواج علي من فاطمة . والثالث كان « بابا سونديك » ، وهو هندي كان يعزف على الكوس « الطبلة الطويلة » في غزوات الرسول .
انظر : سامي محمد علي : مجلة الثقافة العربية ، السنة الاولى ، العدد ٢٨ حزيران سنة ١٩٧٤ ، ص ١٠٥ نقلا عن مؤرخ تركي يدعى « اوليا شلبي » .
فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ١٥١ .

د ـ امر ابو بكر بنزع شقتي مغنيتين شتمتا الرسول اثناء غنائهما انظر : الطبري / تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢١ ، ٢٤٢ . البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٤٢ .

تؤكد أن النبي ـ عليه السلام ـ سمع بالغناء وضرب الدف مما اعطى لذوي الإباحة رخصة لسماع الاصوات والانغام والالات المتعددة من دف ويراع وقصب وعود وطنبور وغيرها ، الا انه روى عن النبي عليه السلام انه قال « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، ولا تحل التجارة فيهن ، واثمانهن حرام والاستماع اليهن حرام »(٤١) .

واذا كان الاولون مختلفين حول إباحة الغناء، فمما لا شك فيه ان الاسلام لم يشجع هذه الحرفة لما فيها من تبذل وتخنث وجاهلية(٤٢) ورغبة منه في تجنيب المسلمين عوامل الضعف والانحلال نتيجة الاستماع ، لما يرتبط بالغناء من احتساء للخمر واللهو والعبث في كثير من الاحيان ، ولما للقيان من سمعة سيئة لان اسم القينة مرادف للفاجرة والخائنة(٤٣) ، هذا الى جانب ما ارتبط بالغناء من صفات سيئة الحقها المخنثون .

وبذلك يكون وضع الغناء في عهد الرسول وخلفائه من بعده ، يقتصر على ترتيل القرآن والآذان وإنشاد الشعر(٤٤) ، وان كان هذا لا يمنع من وجود الغناء كفن بسيط وصاف ونقي على نطاق محدود .

(٤١) ابن القيسراني : السماع ، ص ٨٤ ، ٨٥ .
النويري : نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٥١ .
كما روى عن عائشة مثل ذلك . انظر : النويري : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٤٢) يوسف درويش غوانمة : مجلة الافكار ، فن الموسيقى والغناء عند العرب ، العدد ٤٨ ، ص ١٢٥ .

(٤٣) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٥٩ .
الفيروز اباد : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٦٤ ، القينة : الامة المغنية ، والمقينة ، والماشطة ، والتقين : التزين .
المعجم الوسيط ، ج ٢ ، ص ٧٧٦ : الامة ، وغلب على المغنية .

(٤٤) يوسف غوانمة : مجلة افكار ، فن الموسيقى والغناء العدد ٤٨ ، ص ١٢٥ .

أما ما ورد عن القصب والاوتار ـ الموسيقى ـ فلم يذكر شيء عن إباحته ولا تحريمه ، وانما استباح المتقدمون استماعه لانه لم يرد في الشرع التحريم وكان اصله الاباحة(٤٥) وان كان المسلمون الأوائل متجافين عن قرع الطبول والنفخ في الابواق تنزها عن غلظة الملك ، رفضا لاحواله واحتقارا لابهته(٤٦) .

جـ ـ الغناء والموسيقى في العهد الاموي

ونتيجة للفتوحات ، يجلب الوف الموالي والاماء الى مركز الخلافة في الحجاز ، ويصطحب هؤلاء ما كان موجودا او معروفا من ادوات الحضارة والثقافة ، وتنال الالات الموسيقية بانواعها من عيدان وطنابر ، ومعازف ومزامير(٤٧) حظها من الاهتمام لديهم ، ويأخذ هؤلاء الموالي(٤٨) بنصيب في ركب تطور هذا الفن بما اثروه بصورة مباشرة او غير مباشرة في حياة المجتمع العربي الاموي ، ونشاهد في ديار الحجاز والشام وغيرهما صورة جديدة لم نعهدها من قبل للفن ، اذ نجد مراكز أشبه بمعاهد أو مدارس فنية تخرج الفنانين من الجنسين ، ويلتزم هؤلاء الفنانون ـ الإحتراف الفني .

ويتخذ الفن في الحجاز ـ مكة والمدينة ـ مظهرا اكاديميا وفنيا ، وتتفوق مدرسته الفنية على سائر المدارس في كافة الاقاليم ، فتصبح مصدرا للمغنين بمن فيهم اولئك الذين هم في قصور خلفاء بني أمية ، ويسيطر اسلوبهم الغنائي حتى يصبح القدوة لباقي الفنانين في الشام والعراق ، وانى لهم أن يصلوا الى مستواه الاكاديمي أو التطبيقي .

وتشاء الاقدار ان يجتمع الاضداد معا ، فحيث الزهد والورع والتقوى والفقه والحديث ، نجد حياة اخرى ، تقوم على العبث واللهو ، ذات فن بديع ، وتنادر وشراب ، وتغص مكة والمدينة وضواحيهما بالمغنين والمغنيات ، يشاركن الحجاج بقوافل فنية منهم ، ويعقدون الندوات والمجالس الخاصة للفن الغنائي(٤٩) .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن . لماذا تقدم الفن الغنائي والموسيقي في ارض النبوة على الاقاليم كافة في العهد الاموي ؟ .

ومما لا شك فيه ، ان هناك مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ساعدت على ذلك ، وكان لها اكبر الاثر واهمها :

١ ـ الاسباب السياسية : ان استئثار الأمويين بالخلافة وحصرها في اسرتهم دفعهم الى تضييق الخناق على غيرهم من بطون قريش واشرافها(٥٠) ، مما دعا هؤلاء الى الانصراف الى الامور السهلة التي لا تجر عليهم المتاعب ، من ظرف وغناء وشراب ومجون . مما حقق خطة سياسة الدولة في عزل أبناء الأشراف عن مهام الملك وشؤون السياسة(٥١) .

٢ ـ وفرة الأموال بين ايدي الحجازيين ، وذلك نتيجة للفتوحات ولما كانت تغدقه الدولة عليهم باسراف ، مما شكل طبقة من الموسرين الأغنياء ، دفعهم الى الانطلاق وراء اللهو والطرب والعيث ، مما أدى الى إفساد النفوس اكثر من تهذيبها(٥٢) .

٣ ـ توفر خيرة الجواري والإماء والعبيد ، واكثرهم تأدبا ، وارفعهم نسبا ، هذا الى جانب ان اكثر الجواري كن ممن تربين في بيوت الملوك والأمراء ، وتأدبن بآداب الحضارة ، فقام هؤلاء ـ ذكورا وإناثا ـ بنقل ما يعرفونه الى البيئة الجديدة بعد صبغه باللون العربي(٥٣) .

---

(٤٥) النويري : نهاية الارب ، جـ ٤ ، ص ١٤٢ .
(٤٦) ابن خلدون : المقدمة ، ٢٥٩ .
(٤٧) ابن رشيق : العمدة ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ .
المفضل بن سلمة : العود والملاهي ، ص ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ (مخطوط) .
(٤٨) ابن خلدون : المقدمة ، ٢٥٩ .
(٤٩) ابن واصل الحموي : تجريد الاغاني ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .
(٥٠) ابراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية ، ص ١٥٦ .
(٥١) بنت الشاطىء : سكينة بنت الحسين ، ص ١٢٧ .
(٥٢) محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب ، ص ٨٣ . دار النشر للجامعيين ، سنة ١٩٦٢ .
(٥٣) احمد امين : فجر الاسلام ، ص ١٧٩ .

٤ ــ تشجيع الامويين لحياة الترف والمجون في الحجاز للقضاء على نفوذ المدينة ومكة(٥٤) .

٥ ــ طبيعة البدو ، فاذا تحضروا ، وتوافرت لهم سبل الحياة الرغيدة ، اسرفوا في اللهو ، شأن من غني بعد حرمان(٥٥) .

لعل هذه هي ابرز الاسباب التي لعبت دورا مهما في ايجاد البيئة المناسبة لازدهار فن الغناء والموسيقى في الحجاز ، بحيث بقي قاعدة للفن ، ومركزا للاشعاع حتى العصر العباسي(٥٦) .

وللموالي دور في الفن الغنائي والموسيقي في عهد بني امية ، فقد قدموا اساليب جديدة في الغناء ، وعزفوا على آلات موسيقية لم تكن معروفة من قبل ، وادخلوا ظاهرة الاحتراف الفني ، واوجدوا الروابط الفنية ، واتخذوا من انفسهم معلمين ومرشدين لعشاق هذا الفن ومحبيه(٥٧) .

وقد غنى الفنانون بادىء الامر في مجالسهم الخاصة(٥٨) ، بلغتهم وموسيقاهم ، واستطاعوا ان يفتنوا مستمعيهم بحسن الاداء الموسيقي .

واستطاع سائب خاثر ان يطور الغناء العربي من الاسلوب الذي يقوم على السليقة والطبع الى اصول موسيقية دخيلة وكأنه قام بتعريب الالحان، التي اضفت على غنائه الإتقان ، ومنحته اولوية السبق على غيره . كما استطاع طويس ان يتحرر من التقليد باختيار الالحان التي تتفق مع ذوق مستمعيه ، واخيرا يستقل بنهج خاص به في صناعة الغناء ، فيقدم لاول مرة نمطا يقوم على العزف بمصاحبة الدف ، ثم يخترع الهزج والرمل(٥٩) .

ويبدأ ابن مسجح مشواره الفني بنقل الحان بنائي الكعبة ــ من الاجانب ــ الى غناء العرب ، وتلح عليه الرغبة في التعمق الموسيقي ، فيتوجه الى الشام ليأخذ اجمل الالحان الرومية(٦٠) ، ويعود الى الحجاز ليضع اللبنات الأولى للمدرسة العربية الغنائية القديمة ، ويصبح استاذا لعدد كبير من المغنين والفنانين في مكة ، وصاحب نظرية جديدة للغناء العربي .

وسار ابن محرز على نهج الاقتباس والتقليد الفني، فقام(٦١) ــ كابن مسجح ــ واخذ احسن الالحان ومزجها مزجا جيدا حتى بدت وكأنها الحانا جديدة مبتكرة بعد ان اضفى عليها من ذوقه وحسه الفني فغدت لونا غنائيا لم يسمع بمثله ، منحته السبق عمن سواه ، وساعده في ذلك جمال صوته وحسن ادائه ، حتى لقب « صناجة العرب »(٦٢) .

والى ابن محرز يعود الفضل في اختراع الترانيم الزوجية من الشعر .

اما ابن سريج ، فلم يقدم جديدا ، بل سار على خطى من سبقوه فاخذ محاسن النغم الاجنبي، بما يتناسب مع الغناء العربي(٦٣) إلا انه نظر الى الغناء كمهنة رفيعة تخضع للتعبير اللحني مع مراعاة التعبير في الضروب والاوزان .

ويتأثر الفريض بالحان الرهبان الحزينة(٦٤) فيقدم لونا جديدا ، غناء يقوم على النواح والمراثي وهو المأتمي الحزين(٦٥) .

كان هؤلاء هم جيل الرواد الذين ارسوا نواة الغناء والموسيقى العربية في هذا العهد ، ثم تلاهم

---

(٥٤) احمد امين ، المرجع والصفحة . سامي محمد علي . مجلة الثقافة العربية السنة ١ ، العدد ٢٨ حزيران سنة ١٩٧٩ ، ص ١٠٥ .

(٥٥) جبرائيل جبور : عصر عمر بن ابي ربيعة ، ج ١ ص٥٢. بنت الشاطىء : سكينة بنت الحسين ، ص ١٢٨ .

(٥٦) بيضون : الدولة الاموية والمعارضة ، ص ٦٦ .
بينهم : المرأة في حضارة العرب ، ص ٨٢ .

(٥٧) نسيب الاختيار : الفن الغنائي عند العرب ، ص ١٤ .

(٥٨) الاصفهاني : تجريد الاغاني ١ : ٦٥ والنويري : نهاية الارب ٤ : ٢٥ .

(٥٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

(٦٠) النويري : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ . تجريد الاغاني، ج ١ ، ص ٢٢٢ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣ ، ص ٥٠٦ .

(٦١) النويري : المصدر ، ص ٢٨٧ .

(٦٢) النويري : المصدر والصفحة . تجريد الاغاني ، ج ١ ، ص ١٢١ .

(٦٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ، تجريد الاغاني ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٦٤) نسيب الاختيار : الفن الغنائي ، ص ٢٦ .

(٦٥) تجريد الاغاني ، ج ١ ، ص ٢٨٧ . نسيب الاختيار : الفن الغنائي ، ص ٤٠ .

جيل سار على نهجهم ، مزجوا القديم بالحديث ، ثم ابدعوا في الالحان مما طور رسالة الموسيقى كعزة الميلاء ، وكثير غيرها .(٦٦)

وفي مجال التجديد في الموسيقى والالحان ، قام « سائب خاثر » بعمل العود وغنى بمصاحبته لاول مرة(٦٧) واليه ينسب ابتكار الايقاع المعروف Rhythm (٦٨) المسمى الثقيل في الاغنية ذات اللحن الغنى . بينما كان ابن سريج اول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة(٦٩) وادخل التنويع في الضرب والأوزان ، واهتم بتطويل الانغام(٧٠) .

والى « طويس » يعود الفضل في صنع الهزج والرمل في الاسلام لاول مرة(٧١) ، بينما كان ابن محرز ينشد الرمل غير العربي ، ثم اخترع الترنيم بزوج من الشعر العربي(٧٢) .

اما حنين ، فقد طور ـ لاول مرة ـ اللحن من الهزج الى السناد ، مما جعل الاغنية تقوم على اصول وقواعد فنية جديدة(٧٣) .

والفت عزة الميلاء الحانا جميلة ، وهي اول من غنى الغناء الموقع من النساء ، الى جانب اتقانها العزف على عدة الات موسيقية(٧٤) كالمزهر والعود والمعازف (القانون) .

والى جميلة يعود الفضل في إبراز شخصية الفنان ، فقد كانت تحشد الموسيقيين والمغنين في تنافس فني شريف(٧٥) الى جانب قيامها بالنقد الفني(٧٦) للاعمال التي تقدم .

وغلبت على الغريض الالحان الحزينة(٧٧) اكثر من الأداء .

اما الالات الموسيقية التي جرى العزف عليها خلال هذا العهد ، فهي على ثلاثة انواع : وترية ونفخية والات قرع . واهم الالات الوترية :

الرباب : وهي رفيقة العربي وصديقة الشعراء قبل الاسلام(٧٨) .

والربوب : غير عربية الاصل تختلف عن الاولى عزفا بنبر الاوتار بقطعة من الناب او العظم(٧٩) والمزهر آلة تشبه العود واقرب الى البزق ، عزفت عليها سيرين جارية حسان بن ثابت وبرعت بالعزف عليها عزة الميلاء(٨٠) .

والعود : انتشر في هذا العهد ، وحل محل آلة المزهر ، واصبح متداولا بين عدد من الفنانين(٨١) .

والطنبور : آلة تشبه العود من حيث اعطاء الانغام ، ولكنها اطول عنقا(٨٢) وقد عزف عليها الشعراء والمداحون(٨٣) قبل الاسلام ، وفضلها اهل الراى على سائر الالات(٨٤) .

---

(٦٦) واشهرهم : معبد ، ابن عائشة ، يونس الكاتب ، عطرد ، الابجر ، حنين ، الغريل ، نجم بن طنبور .
ومن المغنيات : جميلة ، وسلامة ، وحبابة ، وسلامة الزرقاء ، ربيحة ، سعدة ، سعاد ... الخ .

(٦٧) الاصفهاني : تجريد الاغاني ، جـ ٣ ، ص ٩٦٢ .

(٦٨) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٦٩ .

(٦٩) الاصفهاني : تجريد الاغاني ، جـ ١ ، ص ٩٥ . النويري: نهاية الارب ، جـ ٤ ص ٢٥ .

(٧٠) محمد محمود سالم حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٤١ .

(٧١) الاصفهاني : تجريد الاغاني ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ . النويري : نهاية الارب ، ص ٤ ، ص ٢٤٦ . ابن خلكان: وفيات الاعيان ، جـ ٣ ، ص ٥٠٦ ،

(٧٢) محمود حافظ : المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩٣ .

(٧٣) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٧١ .

(٧٤) ابن خرداذبة : اللهو والملاهي ، ص ٢٧ .

(٧٥) الاصفهاني : تجريد الاغاني ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

(٧٦) ابن خرداذبة : اللهو والملاهي ، ص ٢٨ .

(٧٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، جـ ١ ، ص٥٢٥.

(٧٨) محمد محمود حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٢٢ .

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٨٠) ابن خرداذبة : اللهو والملاهي ، ص ٣٦ ، ٣٧ . انظر اسماء العود .
ابن سلمة : العود والملاهي ، ص ٢٦ ، مخطوط .

(٨١) كعزة الميلاء ، وحبابة (ابن خرداذبة : اللهو ، ص ٢١ ، ٣٧ ، ٤٠) .
المفضل بن سلمة : العود والملاهي ص ٢٦ ، مخطوط .
وابن سريج (تجريد الاغاني ، جـ ١ ، ص ١٠٦) .

(٨٢) الموسوعة الميسرة : ص ١١٦ ، القاهرة : دار القلم ، سنة ١٩٦٥ انظر اسماء العود ، ص ٢٦ في العود والملاهي.

(٨٣) محمد محمود حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٢٦ .

(٨٤) ابن خرداذبة : اللهو والملاهي ، ص ١٧ .

والبربط : الة تشبه العود ، عرفت لدى الفساسنة والمناذرة(٨٥) وكانت محببة لديهم في مجالس الانس والطرب .

والصنج : وهي الة تعزف بالانامل ، وذكرت في شعر الجاهليين(٨٦) .

والجنك : وهو اشبه بالقانون البدائي القديم اختص به غير العرب(٨٧) واستعملوه منذ القدم .

والات النفخ التي اشتهرت ثلاث : الناي والمزمار وزمارة القرب .

اما الات القرع فاهمها : الطبل والدف والجلاجل .

والناي غير غربية الاصل « ناي نارم » اكتفى العرب بالمقطع الاول وان كانوا يسمونه « قصابة » وقد صاحبت الشعراء والمداحين قبل هذا العهد(٨٨) وكثرت في مجالس الحجاج(٨٩) .

والمزمار : وهي الة تشبه الناي(٩٠) نغمها ناتج عن تبديل الاصابع على الثقوب ، ذات صوت صارخ(٩١) .

وزمارة القرب : اشتهرت عند غير العرب باسم « ناي انياب » وكانت لها شهرة في مصاحبة القيان والمغنيات لديهم ، كما عرفها الفساسنة والمناذرة(٩٢) .

والطبل : كان يصاحب منغم المزمار ، واستعمل العرب طبلتين على جانبي الجمل في مواكب الحج للقرع عليها .(٩٣)

والدف أو الرق : أشهر آلات الايقاع في مصاحبة النغم ، وقد اشتهر بالنقر عليه عدد من الفنانين(٩٤) .

والجلاجل من الالات التي كانت تصاحب حركات الرقص(٩٥) .

وهكذا نجد ان الآلات الموسيقية تعددت وكثرت بين أيدي الفنانين واخذوا يعزفون عليها جماعات وفرادى .

وعلى الرغم من أن معظم هذه الآلات الموسيقية كانت معروفة من قبل إلا ان هذا العهد تميز في ان استعمالها قد شاع وانتشر وأن بعضها قد طور ودخله التحسين .

ولئن كان العرب ــ قبل الاسلام ــ يغنون في كل مكان ، وفي كل مناسبة ، فقد وجدت في هذا العصر ظاهرة جديدة ، وهي الإحتراف ، فلم يكن للفنانين عمل سوى التفرغ للفن ، وكان الموالي هم المتهنون المحترفون(٩٦) ، مما جعل فن الغناء والموسيقى منظما لهما رجالهما واصحابهما ، وملك هذا الفن الجديد على المحترفين قلوبهم وعقولهم ، مما دفعتهم الى تخاذ اندية خاصة بهم يتجه اليها الفنانون(٩٧) المختصون ، فربطت بينهم أواصر الفن بروح اخوية .

واستجابة لهواية الفن ، شكل ــ بعض ــ الفنانين ، ما يمكن ان نطلق عليه ــ مجاوزة ــ معاهد التعليم الموسيقي والغناء ، تدربوا وخرجوا اعدادا كبيرة وبخاصة من القيان اللائي كن ينزلن القصور حتى لا يكاد قصر يخلو منهن(٩٨) .

وكما اسلفنا القول ، فقد كان تعلم الغناء في

---

(٨٥) محمد محمود حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ١٨ انظر اسماء العود ، ص ٢٦ .
(٨٦) الموسوعة الميسرة : ص ٦٥٠ .
(٨٧) الاصفهاني : تجريد الاغاني ، ج ١ ، ص ١٢١ .
(٨٨) محمد محمود حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٢٨ .
(٨٩) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٢٨ .
(٩٠) الموسوعة الميسرة : ص ١٦٩١ .
(٩١) محمد حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي : ص٢٨.
(٩٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٩٣) الموسوعة الميسرة ، ص ١١٥٤ .
(٩٤) وقد نقل عليه الدلال (ابن خرداذبة : اللهو والملاهي ، ص ٣١) .
طويس (حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج ١ ، ص ٥٢٤) .
حكم الوادي (النويري : نهاية الارب ، ج ٤ ، ص٣٠٥)
(٩٥) محمد محمود حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٦٩ .
(٩٦) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٨٢ .
(٩٧) علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي ، ص ٥٥٥ .
(٩٨) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٨٢ .

البيئة العربية يتم بالرواية والمشافهة في اغلب الاحيان ؛ فلم يعرفوا الكتابة الموسيقية (النوتة) على الرغم من انه جرت محاولات لتدوين الموسيقى بالاستعانة بالرموز المأخوذة من الأبجدية العربية ؛ لان اغانيهم كانت تقوم على اشكال لحنية محلاة بالزخارف الموسيقية(٩٩) .

واذا كان الموسيقيون لم يعرفوا الابعاد الموسيقية ، فانهم عرفوا مواضع الابعاد على العود، فعرفوا المطلق والسبابة والوسطى والبنصر والخنصر(١٠٠) ، كما اطلقوا لفظة سجاح وصياح على الطنين(١٠١) .

وبالرغم من ان الغناء العربي بدأ بسيطا ساذجا ؛ فكان الحداء الذي غناه الركبان(١٠٢) سواء أكان نصبا او غناء مرتجلا(١٠٣) إلا ان التأثير الاجنبي كان واضحا في تطور الموسيقى .

وقد تعددت الايقاعات(١٠٤) في هذا العهد ؛ فكان منها : الخفيف الاول والثاني ، والثقيل الاول والثاني والرمل وخفيفه ، والهزج .

---

(٩٩) فارمر : المرجع السابق ، ص ٧ .

(١٠٠) المطلق : الوتر المطلق ، السبابة = الاصبع الاول ، الوسطى : الاصبع الثاني . البنصر : الاصبع الثالث. الخنصر :الاصبع الرابع .

(١٠١) فارمر : المرجع السابق ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

(١٠٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٥٨ .
الابشيهي : المستطرف ، ج ٢ ص ١٤٦ .

(١٠٣) محمد محمود حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي، ص ٤ .
النصب : الغناء المهذب من الحداء ، لما دخله من تحسينات واوزان متبعا لضرورة الشعر القديم ، وهو من بحر الرجز .
الغناء المرتجل : وهو حداء الركبان المحسن الذي احيته القبائل البدوية في الصحراء ، لبدائيته وسهولته لمن لم يتعلم ويتلقى تمرينا في الغناء . وهو من بحر الرجز ايضا .

(١٠٤) اوزان الايقاعات :

الخفيف الاول	مفاعل مفاعيلن
الخفيف الثاني	فعلن فعلن فعلن
الثقيل الاول	مفعولن مف مفاعيلن مف
الثقيل الثاني	مفعولن مفعو مفاعيلن مف
الرمل يشبه صياح الديك كي ككي ككي فاعلات فاعل	
خفيف الرمل	متفاعلتن متفاعلتن
الهزج	مفاعلن مفاعلن

(١٠٥) محمد محمود سالم حافظ : تاريخ الموسيقى والغناء العربي ، ص ٤١ .

(١٠٦) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(١٠٧) حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ١٢١ . بيروت : دار الثقافة سنة ١٩٥٩ .

(١٠٨) الاصبهاني : الاغاني ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(١٠٩) ابن عبدربه : العقد الفريد ، ج ٧ ، ص ٢٨ .

وقد ادت هذه الايقاعات الى الغناء المتقن الذي يعتمد على طريقة جديدة في التناسق الايقاعي المستقل عن الوزن الشعري . الا ان الموسيقى كانت لحنية متشابهة ، سواء رافق المغني آلة او اكثر ، ولكن الموسيقي البارع « كابن سريج »(١٠٥) هو الذي كان يشبع الالحان ، ويملأ الانفاس ، ويعدل الاوزان ، ويفخم الالفاظ ، ويستوفي النغم الطويل ، ويحسن مقاطع النغم القصار ، ويصيب اجناس الايقاع ، ويختلس مواقع النبرات ، ويستوفي الضرب من النقرات(١٠٦) ليقدم في النهاية لحنا رائعا .

لقد وصل الموسيقيون الى مستوى ارضى اهل الفن وعشاقه ، بما قدموه من موسيقى مستوفاة النغم متوازنة مع الايقاع أرضت اذواق المستمعين ونالت إعجابهم .

وغزت الالحان الحجازية سائر الاقاليم ، واعتبرها الموسيقيون مثالا يحتذى لما بلغته من صياغة لحنية وتناسق ايقاعي ، وقدرة فنية نالت اعجاب الخلفاء والامراء ، ونال اصحابها الجوائز القيمة ، ولذلك ظلت الحجاز معهد الفن(١٠٧) الذي يخرج الأفواج على مدى عقود الحكم الاموي، بينما لم تقدم الشام والعراق سوى مغنيين ، فالعراق انجبت حنين الحيري(١٠٨) والشام ابا كامل الفزيل(١٠٩) ، اللذين لم يصلا لمستوى عمالقة الفن في الحجاز .

واخذ التأثير الجديد ابعادا متعددة ، فالى

جانب التأثيرات الموسيقية التي تطورت مع تقدم الأمة العربية ، التي اوجدهما كل من ابن مسجح وابن محرز(١١٠) حتى نسب اليهما علم الموسيقى في هذا العهد(١١١) ؛ نجد ريادة جديدة قامت على توثيق الغناء الموسيقي على يد يونس الكاتب ، الذي قام بأول محاولة لجمع اغاني العرب وارخ للمؤلفين والملحنين(١١٢) .

(١١٠) جبرائيل جبود : عصر ابن ابي ربيعة ، جـ ١ ، ص٥٣.
(١١١) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٦ .
(١١٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٠٧ . دار المعرفة ، بيروت سنة ١٩٧٨ .
ذكر له ثلاث كتب : محمود يونس ، القيان ، النغم
ياقوت : معجم الادباء ، جـ ٤ ، ص ١٨٢ . ذكر له
كتابان : النغم ، الايقاع . بروكلمان : تاريخ الادب
العربي : جـ ١ ، ص ١٩٧ ، القاهرة : دار المعارف
سنة ١٩٥٩ .

وعلى الرغم من ان كتبه مفقودة حتى الآن فان جوهرها موجود فيما كتبه كل من اسحق الموصلي وابن المهدي والاصبهاني(١١٣) لاعتمادهم عليها .

(١١٣) شوقي ضيف : الشعر والغناء في مكة والمدينة ص ٦١ .

WWW.ATTAWEEL.COM